آثار حمص العربية الإسلامية المملوكية 648-923هـ/1250-1517م

*د. أمية الغزي

ملخص:

بنيت حمص على موقع تل القلعة الحالية وحولها، وكان يوجد عدة مدن قديمة في منطقتها؛ قادش وقطنا وأريسوزا (الرستن حالياً)، لقد تعرضت لغزوات واحتلالات متعددة، وفي العصور الإسلامية المتعاقبة كانت تمر بحالة مد وجزر من الأهمية السياسية والعسكرية، حيث نهضت الحياة الفكرية والعمرانية في ظل دولة المماليك، فمن الناحية الفنية كان هذا العصر من أزهى العصور الإسلامية، وليس أدل على ذلك من الآثار المتبقية إلى يومنا هذا، من المساجد، والزوايا، والمدارس، والحمامات، والخانات، والتكايا، والقناطر، والقصور التي نجد فيها دقة الفن وروعته، وفي مدينة حمص العربية الإسلامية كان لها نصيب من هذه العمائر، وسيوضح ذلك من خلال قوائم بأسماء المباني التي أنشئت في هذا العصر.

الكلمات المفتاحية:

حمص- العصور الإسلامية، دولة المماليك، المساجد، المدارس، الزوايا، الخانات، الحمامات، القصور.

*دكتوراه في التاريخ – عرب وإسلام – كلية الآداب – جامعة دمشق

Antiquities of Homs, Arab Islamic Mamluk 648-923H I 1250-1517AM

*Omaya Algazy

Abstract

Homs grew up on the site of the current citadel hill, and inherited several ancient cities in its region. Kadesh, Qatana, and Arisuza (now Rastan), were subjected to multiple invasions and occupations.

In successive Islamic eras, it went through an ebb and flow of political and military importance, as intellectual and urban life flourished under the Mamluk state.

From an artistic standpoint, this era was one of the most brilliant Islamic eras, and there is no clearer evidence of that than the monuments remaining to this day, from mosques, corners, schools, baths, inns, hospices, arches, and palaces in which we find the precision and splendor of art.

The Arab and Islamic city of Homs had its share of these buildings, and this will be explained through lists of the names of the buildings that were constructed in this era.

key words:

Homs – Islamic times, Mamluk state, mosques, schools, zawiyas, caravanserais, baths, palaces.

آثار حمص العربية الإسلامية المملوكية
648-923هـ/1250-1517م

مقدمة:

إن الدراس للحضارة العربية الإسلامية عبر امتدادها الزمني يجد تراكماً حضارياً امتد على مساحة جغرافية واسعة، وشغلت بغداد مركز هذه الحضارة اعتباراً من القرن الثاني الهجري، فقد اعتنى الخلفاء العباسيين بالناحية الفكرية والعلمية والثقافية إلى جانب اعتنائهم بالدفاع عن حدود الخلافة العباسية، فوجدت حضارة فكرية لا تكاد حضارة من الحضارات تضاهيها، غير أن هذا التراث الفكري قد تعرض إلى هجمة بربرية كادت أن تقضي عليه لولا ما وجد من علماء قد اعتنوا به في الأمصار الأخرى مثل مصر وبلاد الشام والحجاز، وإلى هذه الأمصار يعود الفضل ليس إلى إحياء هذا التراث فحسب بل الإبداع فيه أيضاً.

فالمراكز العلمية التي انتشرت في كافة أرجاء الشام ومصر قد أسهمت في أوجه مختلفة، وساعدت على نبوغ الكثير من العلماء الذين وجدوا في تشجيع السلاطين والأمراء والقادة وعامة الناس ما يساعدهم على النهوض بهذا التراث وتوثيقه.

فقد أشارت الدراسات إلى أن العصر المملوكي من أزهى عصور الإسلام بالرغم من الحروب المتواصلة ضد الصليبيين والمغول في عشرات من المعارك الدموية، والحق أننا ندين لهؤلاء المماليك بإنقاذ البلاد من هجمات المغول الوحشية، وصد الصليبيين ومحاولتهم السيطرة على طريق التجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تمر من البلاد العربية.

إن ماتركه المماليك من تراث حضاري لايتمثل فقط في العمائر التي أشادوها في كل من مصر وبلاد الشام، من مساجد[1]، وربط[2]، وزوايا[3]، وخانات[4]، وتكايا[5]،

[1] – يطلق اسم المسجد على المكان التي تقام فيه الصلاة سواء كان صغيراً أو كبيراً، والمسجد الجامع هو المسجد الكبير التي تقام به الصلوات الخمس والجمع والعيدين، حسين آغا، محمد غازي: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، دار الإرشاد للنشر، حمص، ط1، 2019م، ص11.

وأضرحة[6]، وبيمارستانات[7]، وحمامات وغيرها، مازالت آثارها باقية حتى اليوم، بل تتمثل أيضاً فيما خلفه علماء وأدباء تلك الحقبة من مؤلفات مازالت تعتبر من أهم مراجع البحوث والدراسات الإسلامية في شتى ألوان الفكر والثقافة[8].

---

[2] – هو المكان المخصص للمرابطة والجهاد في سبيل الله والأعمال الصالحة والعبادة، والرباط هو التكية باللغة التركية، حسين آغا: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، ص48.

[3] – الزوايا من المساجد، إلا أنها صغير نسبياً، وقد كثرت بكثرة الطرق الصوفية ورجالها من أهل العلم والتزكية والإرشاد، والزاوية تنسب إلى مؤسس الطريقة، يتخذونه للصلاة والعبادة وتلاوة الأوراد وإقامة الأذكار، حسين آغا: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، ص48.

[4] – الخان لفظة معربة معناها المنزل والحانوت، وقد اشتهرت اللفظة في الإسلام وأطلقت على منازل المسافرين في الطرق وفي القرى وفي المدن، وتعني المنزل المخصص لنزول المسافر، وهو عادة يكون كبيراً، يستريح فيه المسافر، تاجراً كان أو غير تاجر ويضع فيه مطاياه، جواد، علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2007م، ص223.

[5] – المكان الذي يجتمع فيه الفقراء، وهو المكان المسبل لتقديم الطعام والشراب ونحوه، حسين آغا: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، ص49.

[6] – هي مكان دفن بعض الصحابة الكرام والتابعين في منازلهم، والأولياء والعلماء في أماكن عبادتهم، وبالغ في هذا الأمر الكثير من الملوك والقادة والأمراء وتعددت أشكاله، وتفاخروا فيما بينهم ببناء مراقدهم ليدفنوا فيها، فكانت مدافنهم من ملحقات المساجد والمدارس، وصار المدفن يتقدم كل بناء علمي، حسين آغا: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، ص50.

[7] – وهي لفظ فارسي تتكون من" البيمار" وتعني المرضى و" ستان" وتعني الموضع، ومعناها موضع المرضى، البستاني، بطرس: قطر المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1869م، ج1، ص162.

[8] – زكي، عبد الرحمن: تراث القاهرة العلمي والفني في العصر المملوكي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت، ص51.

ويستدل أن المماليك لم يكونوا فقط حكاماً عسكريين، بل كانوا مشجعين للعلم وراعين للعلماء، وبالطبع فإنهم حملوا السيف بيد وراية العلم بيد أخرى، وكان لفئات المجتمع إسهاماً أيضاً في الحفاظ على تراث هذه الأمة[9].

ومن ينظر إلى مدينة حمص العربية القديمة التاريخية، فإنه يرى لها نمطاً معمارياً خاصاً في كل معالمها العمرانية، ورغم التطور العمراني المتسارع، فإن حمص القديمة مازالت تحافظ على نمطها العمراني المتمثل في أزقتها وحجارتها السوداء، بينما الأسواق لها أماكن حول مسجدها الجامع، وكذلك ما يلحق بها من خانات وحمامات ومساجد وأسوار و..، وهكذا فإن المدينة القديمة هي في تكوينها العام آثار حقيقية وتراث تاريخي، وكذلك فيما بقي منها من آثار عمرانية من حقب التاريخ المختلفة، والتي تمثل التراث الحضاري للمدينة، الذي اكتسبته كمدينة عربية إسلامية منذ الفتح وفي مختلف عصور الخلافة، وخاصة في عصر المماليك.

-مشكلة البحث وأهميته:

يسعى البحث للتقصي عن حقيقة الأعمال المنجزة والمنشئة في العصر المملوكي، وكيف أن التطور العمراني والفكري والعلمي والديني كان قد بلغ ما بلغ من التقدم والازدهار، حيث أن هذه المنشآت كان لها دور بارز في تقدم العلوم الدينية في حمص وظهور عدد من العلماء في الفقه والعلوم الشرعية درسوا وتخرجوا من الجوامع وملحقاتها من الربط والزوايا والمدارس وكان لهم دور في المجتمع، وهناك أسباب أخرى للمسارعة من قبل حكام المماليك لبناء المساجد ورصد الوقف الكبير للإنفاق ودوام ثوابها، وضمان عدم انقطاعها، والتنافس فيما بينهم، هو حفظ ثرواتهم وأملاكهم لذرياتهم من بعدهم، هرباً من مصادرتها فيما بعد عند الأزمات، كما جعلوا ذلك طريقاً من طرق التقرب إلى قلوب العامة، ويبين البحث أن

[9] – الحميد، أحمد: الحياة الفكرية في مصر والشام في ظل دولة المماليك الثانية، مجلة البحث التاريخي، العدد 9، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م، ص27.

الكواجكة هم من أحفاد الأيوبيين حكموا حمص في العصر المملوكي وليسوا من أصول مملوكية، وساهموا في البناء في حمص، والبحث يشكل مادة علمية للمهتمين بالتاريخ الإسلامي.

-أهداف البحث:

- مازالت الحاجة ماسة لمزيد من الدراسات حول تاريخ حمص، ودورها الهام موقعاً ومشاركة في صنع التاريخ.
- إن الأبنية من أماكن أثرية أو معابد، وما بقي من السلف، هي جزء من ذاكرتنا ويجب أن نفيها حقها من الدراسة.

-إبراز أوجه الإبداع في مظاهر العمارة والفنون والمنحوتات والنقوش في العصر المملوكي في حمص، والإضاءة على جانب مهم من أوابدنا الأثرية.

-الدراسات السابقة:

هناك دراسات تحدثت عن المماليك وأعمالهم وانجازاتهم الفنية في مصر والشام، وهناك بعض الدراسات عن آثار حمص عبر العصور؛ ككتاب " مدينة حمص المساجد والزوايا" لمحمد غازي آغا وكتاب" أسر حمص وأماكن العبادة" لنعيم الزهراوي وكتاب" موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها" لسليم عبد الحق، والجديد هو التعمق في دراسة الآثار الباقية من العصر المملوكي في مدينة حمص، والآثار التي تم تجديدها أو إضافة لمسات العصر المملوكي عليها في حمص، مع العلم أنه تم البناء والتجديد من الحكام المماليك، ولكن الأبنية والمنشآت هي من عمل أبناء المدينة وعمالها وحرفيها، مع التوثيق لكل عمل منجز.

-عرض البحث:

أولاً: نبذة جغرافية عن مدينة حمص:

ورد اسم المدينة حِمْص[10]، وهناك من ينطقها حُمص، بينما أطلق عليها اليونان والرومان تسمية أميسا[11]، هي مدينة مشهورة في القدم، تعتبر المدينة الشامية الثالثة بعد دمشق وحلب، لها موقع جغرافي ممتاز، تستقبل من الشرق البادية، ومن جنوبها تلول ووهاد[12]، ومن شمالها تلول وسهول، وفي غربها البحر، وبين هذا وذاك تتوسط هذه المدينة الشامية[13]، مبنية على هضبة واسعة.

يجري نهر العاصي[14] في غربها، ويشكل بحيرة حمص[15]، أما قلعتها[16] فتقع فوق إحدى التلال في الجهة الجنوبية من المدينة القديمة المسورة[17]، ويوجد خندق محيط

---

[10]- يقال أن من بناها رجل اسمه حمص بن المهر بن جان بن مكنف وقيل حمص ابن مكنف العمليقي، ويقال رجل من عاملة أول من نزلها. البكري، عبد الله بن عبد العزيز ت.487هـ/ 1094م: معجم ما استعجم من أسماء البلاد، عالم الكتب، ط3، بيروت، 1982م، ج2، ص468؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله ت.626هـ/1228م: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج2، ص302.

[11]- سركيس، يوسف: مدينة حمص، مجلة المقتطف، العدد53، حمص، 1904م، ص67؛ بروكلمان، كارل: دائرة المعارف الإسلامية، إعداد و ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد؛ أحمد الشنتاوي؛ عبد الحميد يونس، دار الشعب، القاهرة،1969م ، مج5، ص349.

[12]- الأرض المنخفضة، ابن منظور، محمد بن مكرم ت. 711هـ/1311م: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1993م، ج3، ص470.

[13] - فهي تقع شمال دمشق 160كم، وجنوب حلب 195كم، وغرب تدمر 150كم، وشرق طرابلس 90كم، وجنوب شرق طرطوس 96كم، مركز الدراسات العسكرية: المعجم الجغرافي السوري، دمشق، ط1،1990م، مج3، ص144.

[14] - سمي بهذا الاسم لأن أكثر أنهار بلاد الشام تجري من الشمال إلى الجنوب، أما هذا النهر فهو يعصي(يخالف) بجريانه في الاتجاه المعاكس، وكان العرب يسمونه أيضا بنهر المقلوب، وأيضا سموه نهر الأرنط المقتبسة من اسمه في اللاتينية، البني، عدنان: بين التراب والتراث، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2004 م، ص197 .

بجدران أسوارها للدفاع عنها، وكان لحمص عند الفتح أربعة أبواب وهي: باب الرستن وباب الشام وباب الجبل وباب الصغير، وفي فترة المنصور إبراهيم

---

15 – كانت تسمى بحيرة قدس، بين حمص وجبل لبنان؛ ويذكر المؤرخون أن سداً أقيم على ضفاف البحيرة يعود تاريخ بنائه إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وأن هذا السد أصلح ورمم في عهد الاسكندر المقدوني وتجدد في عهد الإمبراطور الروماني ديوكلتيان(284-304م) وبذلك أصبحت البحيرة خزاناً مهماً ساعد على ري قسم كبير، الحموي: معجم البلدان، ج1، ص352 ؛ أسعد، منير: تاريخ حمص، مطرانية حمص الأرثوذكية، حمص، 1984م، ج1، ص484. وتسمى الأن بحيرة حمص.

16 – تقع في الجنوب الغربي من المدينة، شيدت فوق تل طبيعي صخري يعلو عن سطح البحر533 م، محيطها من الأسفل حوالي 900م وارتفاعها عن سطح الأرض المحيطة بها نحو 30م، تشرف على مدينة حمص وسهولها، كما تحاط القلعة بخندق كإحاطة السوار بالمعصم، وكان يوجد فيها بالإضافة إلى السور والأبراج، مساكن تضم الحاكم والجيش ومسجداً وحماماً ومخزن ماء عميق ومستودعات، ساطع، أكرم: القلاع والحصون في سورية، مكتبة أطلس، دمشق، 1975م، ص35؛ جود الله، فاطمة: سورية نبع الحضارات تاريخ وجغرافية أهم المواقع الأثرية، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 1999م، ص397؛ البيطار، عبد الرحمن: حمص دراسات في تاريخها وآثارها، منشورات الجمعية التاريخية السورية، حمص، ط1، 2018م، ص262م.

17 – كان يحيط بالبلدة سور من الحجارة البازلتية السوداء اللون له شكل شبه منحرف، وغير منتظم، قاعدته الصغرى هي الجنوبية الممتدة بين باب الدريب وباب السباع بطول 900م، وقاعدته الكبرى هي الشمالية بين باب تدمر شرقاً وبرج الأربعين غرباً بطول 1575م، وضلعه الغربي بين برج الأربعين شمالاً وباب التركمان- الملاصق للسفح الشمالي الغربي للقلعة- جنوباً بطول 825م، فيكون طول السور حوالي 4200م، وله أبراج في مختلف الجوانب، وعبر الزمن وفعل الأيادي تهدم القسم الأكبر من السور، ولم يبق منه ظاهراً إلا أجزاء بسيطة بحاجة إلى عناية وترميم، السباعي، محمود؛ الزهراوي، نعيم: حمص دراسة وثائقية في الحقبة من خروج إبراهيم باشا وحتى خروج الأتراك العثمانيين، مطبعة الروضة، حمص، ط1، 1992م، ج1، ص15؛ البيطار: حمص دراسات، ص262.

ت.644هـ/1246م[18] جعل لحمص سبعة أبواب وهي: باب السوق وباب تدمر وباب الدريب وباب السباع وباب التركمان وباب المسدود وباب هود[19].

ووجدت آثار تشير إلى السكن فيها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وقد تشكلت في حمص إمارة عربية توالى عليها ثمانية أمراء من 81 ق.م–60 ق.م، وعرفت تلك الأسر باسم أسرة شمسغرام[20] نسبة إلى مؤسسها وثاني حاكم فيها الذي بنى هيكلاً للشمس على ظهر القلعة ووضع فيه الحجر المقدس[21]، وبنوا الصومعة للعبادة[22]، وكانت تفد إليها القبائل العربية الجنوبية جلهم من اليمن، كما أنها تطورت وتوسعت قليلاً في أثناء الحكم اليوناني، وكان تطورها الأكبر في العصر الروماني

[18]– الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، وثالث الملك الأيوبيين في حمص، مرض بدمشق وتوفي فيها، وحمل تابوته إلى حمص فدفن عند أبيه، ابن العماد، عبد الحي بن أحمد ت.1089هـ/1668م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م، ج7، ص396

[19]– رباحية، سميرة: منطقة حمص عبر التاريخ، مقال منشور في جريدة حمص في يوبيلها الماسي، مطابع ألف باء، دمشق، 1985م، ص51.

[20] – هم على التوالي: دابل ملكا–شمسيغرام–جيميليك–الاسكندر–جيميليك الثاني– شمسيغرام الثاني–عزيز– سهيم، الموصلي، ماجد: الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مطابع الروضة النموذجية، حمص، 1984م، ص19.

[21] – اكتشفت سنة 1974م حجرة مذبح المعبد في قلعة حمص، السباعي، الزهراوي: حمص دراسة وثائقية، ج1، ص3.

[22] – مكانها مقابل المركز الثقافي الحالي مكان شعبة المدينة للحزب، الزهراوي، نعيم: أوابد الكواجكة المملوكية البحرية بحمص، مجلة البحث التاريخي، العدد 7، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م، ص123.

حتى اتخذوا منها منتجعاً لهم، كما كانت مقراً للإمبراطور هرقل[23] في الأيام الأخيرة قبل فتحها وتحريرها عن سيطرتهم العسكرية والفكرية[24].

ثانياً: حمص في الحقبة الإسلامية الأولى

عندما بدأ المسلمون حروب الفتح في بلاد الشام، تم تحرير حمص من أيدي الروم على يد أبي عبيدة بن الجراح ت.18هـ/638م وخالد بن الوليد ت.21هـ/641م في سنة 16هـ/637م، ولم يتمكن الروم من الاعتماد على عرب حمص في حربهم ضد الجيش العربي المسلم، ولكن جلّ اعتماد الروم كان على الجند المتكسب أكثر من اعتمادهم على سكان المدينة الذي هو غير مضمون العواقب[25]، ومرت حمص في المراحل التالية:

ففي العصر الراشدي(15-41هـ/ 636- 661م)، كانت حمص منطقة أجناد متسعة، تضم مناطق حتى قنسرين وحلب وبلاد الجزيرة.

بينما في العصر الأموي(41-132هـ/661-750م) فإن المساحة المسطحة لحمص قد تقلصت، وصارت تضم حمص وبعض أريافها فحسب، إذ فصل الخليفة معاوية بن أبي سفيان ت.60هـ/679م عنها مناطق الجزيرة والفرات، كما فصل عنها حلب وقنسرين في عهد الخليفة يزيد بن معاوية ت.64هـ/683م ولم يبق ما يتبع

[23] – يوجد موقع أثري حالي مجاور لقرية تليل على طريق الحولة يدعى باسم هرقل وربما له علاقة باسم الامبراطور هرقل، الموصلي: الموجز في تاريخ مدينة حمص، ص37.

[24] –البيطار: حمص دراسات، ص168.

[25] – حمودي، منذر: تحرير حمص من السيطرة البيزنطية، ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى، الجمعية التاريخية، حمص، 1984م، ص75.

جند حمص سوى بانياس وطرطوس ومنطقة الساحل وأفاميا وحماة والسلمية والقريتين وتدمر.

أما حمص في العصر العباسي(132-656هـ/750-1351م) فقد مرت بمراحل ثلاثة:

ففي فترة القوة، ورغم أن حمص قد ضعف شأنها لبعدها عن العاصمة الجديدة بغداد، لكنها كانت تبرز إلى سجل الأحداث فيما تقدمه للدولة العباسية من واردات، أو حين تستعصي على الخلافة، فترسل الدولة حملات تأديبية إليها[26].

أما في فترة ضعف الخلافة العباسية، صارت حمص مطمعاً للولاة المجاورين لها، أو كانت تقع غنيمة بيد حكام جدد، كزمن التأثيرات السلجوقية والحمدانية والمرداسية، ورفع بعض المظالم والغلاء عن أهلها، ولكن لحقها أذى بسبب هجوم الروم عليها سنة358هـ/969م وفي سنة 381هـ/991م[27]، وخراب بعض أجزائها، وكذلك هز أركانها زلازل مدمرة أعنفها سنة 515هـ/1121م وسنة 598هـ/1201م[28]، بالإضافة إلى التأثير السلبي لحروب الصليبيين على المنطقة(473-690هـ/

[26] – ثار الحمصيون على عاملهم العباسي اسحق بن سليمان سنة 190هـ/805م، وقاموا بثورة عنيفة ضده سنة194هـ/809م، وفي سنة 237هـ/ 851م وثبوا على عاملهم موسى بن إبراهيم، وكذلك في سنة 241هـ/855م، ووثبوا على عاملهم العباسي الفضل بن قارن سنة 248هـ/864م وقتلوه، الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ/1347م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، ج5، ص751؛ أسعد: تاريخ حمص، ج2، ص139.

[27] – الذهبي: تاريخ الإسلام، ج8، ص25.

[28] – الذهبي: تاريخ الإسلام، ج12، ص9.

1080–1291م)، وقد وصلت إلى حمص في تلك الفترة أعداد كبيرة من مهاجرة من بلاد السلاجقة جّلهم من التركمان والشركس.

أما الدور الثالث في العصر العباسي فقد خرج أمر حمص عن سلطة الدولة العباسية في المركز، وأصبح الخليفة العباسي رمزاً معنوياً يبارك حكم الحكام في الولايات، الذين تبدلت رتبهم من سلاطين إلى ملوك إلى أمراء،

وكان لحمص أهمية استراتيجية كبيرة خلال فترة الصراع بين المسلمين والصليبين، فنور الدين الزنكي ت.569ه/1173م نصب نفسه حاكماً على تلك المنطقة الواسعة ابتداء من سنة 544ه/1149م، وأصبحت حمص مركزاً حربياً هاماً وخاصة لتجميع الجيوش[29].

وفي العصر الأيوبي عين السلطان صلاح الدين الأيوبي ت.589ه/1193م أولاده وأولاد إخوته وأسماهم ملوكاً، وأعطى حمص لأبناء عمه شيركوه الأول وأحفاده، وأشهر هؤلاء الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني[30] ت.637ه/1239م الذي حكم حمص مدة تزيد على نصف قرن، وكان خطر الصليبيين على حمص كبيراً، بحيث كانوا يصلون بغزواتهم من الجهة الغربية حتى البساتين المحاذية للمدينة[31].

---

[29] – أسعد: تاريخ حمص، ج2، ص216.

[30] – الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، صاحب حمص، ولاه صلاح الدين بعد موت أبيه سنة 581ه/1185م فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، ابن كثير، إسماعيل بن عمر ت.774ه/1372م: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، 1997م، ج13، ص154.

[31] – كان الصليبين ينقمون على أهل حمص لما أبدوه من ضروب البسالة في المعارك الناشئة معهم، فأكثروا الإغارة على حمص، ولكن الحمصيين كانوا يردونهم عنها رداً عنيفاً، أبو

ثالثاً: حمص زمن المماليك(637-923هـ/1239-1557م)

اختلط العصر الأيوبي بعصر المماليك فيما بعد، كونهم ورثة هذا الحكم، فالمماليك الذين هم أجناس متعددة وفرق مختلفة ولا يربطهم أي صلة قرابة أو دم استقدمهم الأيوبيين للخدمة العسكرية أسسوا دولة سنة 648هـ/1250م، بعد قتلهم توران شاه[32]، ونتيجة لسكنهم والنزول في بعض المواقع نسبوا إليها وقسموا إلى سلالتين: البحرية[33] وقد سكنوا في جزية الروضة[34]، وامتدت دولتهم مابين 648-784هـ/1250-1384م؛ أولهم شجرة الدر ت.655هـ/1257م وأخرهم المنصور حاجي بن الأشرف شعبان الذي عزل سنة 784هـ/1382م، والمماليك البرجية وقد سكنوا أبراج قلعة القاهرة ويعرفون بالجراكسة[35]، وامتدت دولتهم مابين 784-

---

الفداء، إسماعيل بن علي ت.732هـ/1331م: المختصر في أخبار البشر، المكتبة العصرية، صيدا، 1959م، ج3، ص108؛ الدبس، يوسف: تاريخ سوريا، المطبعة العمومية، بيروت، 1902م، ج6، ص231.

[32] – المقريزي، أحمد بن علي ت.845هـ/1441م: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، 1971م، ج1، ص361.

[33] – سبب تسمية هذه الفرقة بالبحرية يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك، مجلوين من بلاد القفجاق ومن بلاد القوقاز، عاشور، سعيد: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص153.

[34] – جزيرة في مجرى النيل، بقيت على مر الأيام ضاحية ملكية يبني فيها الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم، وفي عهد السلطان الأيوبي الصالح أيوب بنى فيها قلعة الصالحية وبيوت المماليك التي أسماها المماليك البحرية، الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية، دارة المعارف، القاهرة، 1966م، ص85.

[35] –جنس من الترك موطنهم الأصلي المنطقة الواقعة شرق البحر الأسود، تعرضت بلادهم للغزو المغولي، فازدادت أعدادهم في بلاد الشام ومصر، واشتراهم ملوك بي أيوب

923هـ/1382-1517م؛ أولهم السلطان الظاهر برقوق ت.801هـ/1399م وأخرهم السلطان الأشرف طومان باي ت.923هـ/1517م[36].

ويلاحظ على هذا العصر في حمص اختلافه عن باقي البلاد المصرية والشامية، إذ زالت آثار الحكام السابقين في أغلب المناطق، بينما استمر حكم الأسرة الشيركوية في حمص بموافقة السلاطين المملوكيين، ومثلها استمر الحكم الأيوبي في حماة.

وقد كان أكثر سلاطين الدولة المملوكية تأثيراً في المنطقة الظاهر بيبرس البندقداري ت.676هـ/1277م ، بالإضافة إلى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ت.693هـ/1294م وابنه الناصر محمد بن قلاوون ت.741هـ/1341م.

ومن الناحية السياسية لم تتبدل الأوضاع في مدينة حمص، فقد تلا الملك المجاهد أسد الدين ابنه الملك إبراهيم بن شيركوه ت.644هـ/1246م، ثم الأشرف موسى بن المنصور[37] إبراهيم الذي انتهت بوفاته سنة 663هـ/ 1263م أسرة شيركوه الأيوبية الحاكمة في حمص.

وتشكلت في بلاد الشام ست نيابات قامت على أنقاض الممالك والإمارات الأيوبية التي كانت قائمة فيها، ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعاً للظروف التي كانت توجب إقامتها[38]، وهذه النيابات هي: نيابة دمشق، ونيابة

بأبخس الأثمان، العيني، محمود بن أحمد ت.855هـ/1451م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص64.

[36] – عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص263.

[37] –ولد بالقاهرة، تسلم حمص سنة 644هـ/1246م، كانت له مكاتبات مع المغول، ثم غسل فعاله بالوقعة الكائنة على حمص سنة 659هـ/ 1260م، الذهبي: تاريخ الإسلام: ج15، ص62.

[38] – عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص305.

حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة الكرك[39]، ونيابة صفد[40]، وكانت نيابة دمشق تضم ست نيابات هي: نيابة القدس، ونيابة صرخد[41]، ونيابة بعلبك، ونيابة حمص، ونيابة عجلون، ونيابة مصياف[42]، وحدد ابن العمري حدود حمص في تلك المرحلة مابين قرية القصب

قبلي جوسيه ونهر العاصي غرباً إلى السماوة[43] والفرات شرقاً ومن قارة جنوباً إلى الرستن شمالاً[44].

في هذه الفترة عاث المغول في البلاد وشردوا العباد، وأبادوا الملوك والقواد، لكن انتصار المسلمين في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م غير المعادلة، فجعلت هولاكو يستاء من انكسار المغول وقتل الناصر والطاهر ثم الصالح أمراء حمص الشيركوية.

لاشك أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ المسلمين، التي أنقذت بلاد الشام ومصر من خطر المغول، وجعلت دولة مغول فارس تقف عند حدود

[39] - قلعة حصينة جداً في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، الحموي: معجم البلدان، ج4، ص453.

[40] – القلقشندي، أحمد بن علي ت.821هـ/1418م: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج4، ص091

[41] - بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، الحموي: معجم البلدان، ج3، ص401.

[42] – السحماوي، شمس الدين: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا الخالدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009م، ص147.

[43] – السماوة: بين الكوفة والشام، وهي قفرا، الحموي: معجم البلدان، ج3، ص245.

[44] – العمري، أحمد بن يحي ت.749هـ/ 1348م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، المجمع الثقافي، دبي، 2002م، ص256.

العراق، وإن كانوا قد استمروا بعد ذلك يهددون بلاد الشام، فإن هذا التهديد لم يتخذ شكل غزوات كاسحة مدمرة كما كان الحال من قبل[45].

وقد قام السلطان قطز ت.658هـ/1260م بعد عين جالوت ببسط سلطة المماليك على بلاد الشام، وسمح لبعض أمراء بني أيوب بأن يعودوا ولاياتهم في حمص وحماة، وقد اعترف هؤلاء بالتبعية لسلطة المماليك في مصر.

هذا ولم تنقضي سنة من سنوات العشر من حكم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ت. 676هـ/1277م دون أن يوجه حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين في بلاد الشام[46]، ومنها استيلائه على حصن الأكراد قرب حمص سنة 669هـ/1271م، وكان قد أقام خطاً دفاعياً قوياً على الحدود الشرقية لدولته وشحنه بالرجال والعتاد وأحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة، كما أقام خطاً دفاعياً آخر يمتد من الشوبك[47] والكرك جنوباً إلى أعالي العاصي شمالاً يقف في وجه الخطرين الصليبي والمغولي معاً[48]، والواقع أن بيبرس يعد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك بسبب إضافة الهيبة والقوة على حكم المماليك.

نصران كبيران أحرزهما المماليك في بضع سنين على أشد أعداء المسلمين في ذلك الحين، الفرنج الصليبيين والمغول، وتحول اسمهم فجأة إلى معادل للنصر، وكانت ورقتا اعتمادهم هاتان كافيتين لإغماض عيون المسلمين عن أصلهم فقبولهم ملوكاً.

---

[45] –عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص170.

[46] –المقريزي: السلوك، ج1، ص550.

[47] - قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك، الحموي: معجم البلدان، ج3، ص370.

[48] – عاشور، سعيد: الظاهر بيبرس، دار الثقافة، بيروت، 1996م، ص94.

ولقد تعززت هذه المكانة منذ إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/1260م[49] عندما قلد الخليفة العباسي المستنصر بالله[50] السلطان المملوكي(حكم الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية[51] والحجازية واليمنية والفراتية وما تجدد من الفتوح غوراً ونجداً)[52].

وبتسلم قلاوون ت.689هـ/1290م وذريته السلطنة 678-784-1279-1382م ومحاولة الأمير سنقر الأشقر[53] نائب دمشق الخروج عن طاعته والاتصال بالمغول لغزو بلاد الشام، فتم القضاء عليه، استطاعوا أن يرسخوا حكمهم بالسيف، وأكثر قلاوون شراء المماليك ورباهم في القلعة، لذلك عرفوا بالمماليك البرجية[54].

[49] –ابن عبد الظاهر، محي الدين ت.692هـ/ 1294م: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص99.

[50] – أحمد بن الظاهر بالله بن الناصر لدين الله عم الخليفة العباسي المستعصم بالله الذب قتله هولاكو عند دخوله بغداد سنة 656هـ/1258م، لقب أحمد بالمستنصر بالله وبايعه الظاهر بيبرس والناس بالخلافة، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ت.911هـ/1505م: تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، 2004م، ص477.

[51] - بلاد كبيرة واسعة من غرب دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين، وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحيزان وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل، الحموي: معجم البلاد، ج2، ص494.

[52] – العيني: عقد الجمان، ص301.

[53] – شمس الدين سنقر بن عبد الله العلائي الصالحي، تمرد سنة687هـ/ 1288م في الشام وتسلطن، توفي سنة691هـ/ 1292م، المقريزي: السلوك، ج1، ص940.

[54] – ابن إياس، محمد بن أحمد ت.930هـ/1524م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984م، ج1، ص115.

وبعد أن تخلص السلطان قلاوون من الأخطار الخارجية التي واجهته، بدأ ينصرف نحو المغول والصليبين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى، وفي موقعة حمص التي دارت بين المماليك والمغول سنة 680هـ/ 1281م حلت الهزيمة الساحقة بالمغول، وقد انتهز قلاوون فرصة انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية، وأرسل حملة سنة 686هـ/1287م فأخذ اللاذقية وطرابلس.

واستطاع السلطان الأشرف خليل ت.693هـ/1293م تحرير عكا وباقي المراكز التي بيد الصليبيين سنة 690هـ/1291م؛ وبذلك كان هو بطل أخر صفحات الحروب الصليبية في بلاد الشام.

وفي عهد السلطان الناصر محمد (698-708هـ/1298-1308م) تجددت هجمات المغول على بلاد الشام، وأوغل غازان المغولي[55] في بلاد الشام سنة 697هـ/1298م حتى أنه أنزل هزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماة، ثم دخل غازان دمشق وعاث فيها خراباً، فأتى السلطان الناصر محمد بجيش كبير هزم المغول في موقع مرج الصفر قرب دمشق وذلك سنة 702هـ/1302م[56]، ولحق بهم جيش المسلمين حتى بلدة القريتين وهو يعمل بهم قتلاً وأسراً، وتابع المغول هزيمتهم حتى وصلوا إلى نهر الفرات وكان وقتئذ في

[55] – محمود غازان بن آرغون، حكم ما بين سنة604-703هـ/ 1295-1304م، بعد أن تولى الحكم أصدر قرار يقضي بأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، لكنه لم يتوقف عن غزو بلاد الشام، طرد من الشام سنة 702هـ/1303م واعتبرت آخر حملات المغول الكبرى على بلاد الشام، العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ص324.

[56] – المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص986؛ ابن تغري بردي، يوسف ت.874هـ/1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر، د.ت، ج6، ص122.

أقصى ارتفاع مياهه، فلم يستطيعوا عبوره ومن عبر منهم هلك، وسار الباقون على جانبه إلى مدينة بغداد بعد أن أسرت قبائل العرب منهم جماعة كثيرة.[57]

لقد قاست البلاد كثيراً في عصر السلاطين الجراكسة من جراء المنازعات بين طوائف المماليك، لكن الصراعات الداخلية لم تمنعهم من منع أية قوة خارجية في التدخل بشؤون البلاد أو الانتقاص من سيادتها، وهكذا استطاعت دولة المماليك الصمود في وجه تيمورلنك سنة 801هـ/1399م، الذين استطاع احتلال شمال بلاد الشام، فتوجه نائب حمص بعساكر إلى الشمال مع نواب بلاد الشام لصد غزو التتار، لكنهم انهزموا، وأسر بعض النواب في سنة 803هـ/1400م، ، فتمكن التتار من دخول حماة واحتلالها والايقاع بأهلها قتلاً وأسراً وحرقاً، ثم قدوم طلائع التتار إلى حمص[58]، وتزودت بالمؤن والأعلاف دون قتال، وكان نائبها قد هرب بعد الهزيمة في حماة إلى قارا، وتلقى مهمة كشف أخبار الزحف، ثم وصول

[57] – أسعد: تاريخ حمص، ص252.

[58] – يعود الفضل في بقاء حمص سالمة من طغيان تيمورلنك إلى رجل من علمائها هو عمر بن الرواس، الذي أحسن لقاء تيمورلنك، وقدم له هدية نفيسة، أرفقها بخطبة بليغة حماسية، أتى فيها على ما للصحابي خالد بن الوليد بطل الإسلام من كرامة في حمص، وكيف أن أبطال العالم احترموا ذكراه، وأكرموا مثواه، فقبل تيمورلنك الهدية راضياً، وقال: وهبت حمص لخالد بن الوليد، ثم ولى عليها عمر بن الرواس، أسعد: تاريخ حمص، ج2، ص256؛ كرد علي، محمد: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983م، ج2، ص175.

أخبار من حمص بقدوم التتار إلى دمشق، فاحتلالها[59]، و انتهى حلم تيمورلنك باحتلال مصر عند موته سنة 808هـ/1405م[60].

وبشكل عام يلاحظ انحطاط حمص في عهد المماليك، فالحروب الصليبية ثم الغزو المغولي، والطاعون الهائل الذي حصد سكان حمص فيما حصده من مدن الشام سنة 743هـ/1342م، وفتن الأعراب التي بدأت في تلك الحقبة وألحقت أضراراً كبيرة في قرى حمص الشرقية، كل ذلك أدى إلى انحطاط شأن حمص فوق ماكان منحطاً من قبل بسبب الثورات والروم والصليبيين والمغول والزلازل، إضافة إلى الصراع المرير بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة، فقل عدد سكانها واضمحل ذكرها، وكذلك كثرة من تولى السلطنة في حمص، وقد بلغ عددهم أكثر من أربعين نائباً[61].

رابعاً: المظاهر الاقتصادية

لقد كانت سلطة المماليك ظاهرة لا مثيل لها في التاريخ، إلا فيما ندر، أن تشتري أمة عبيد رقيق مماليك من أقاصي الأرض وتدربهم عسكرياً، ليصبحوا المقاتلين والحكام والسلاطين، ويشكلوا طبقة أرستقراطية مفارقة للشعب على كل المستويات:

---

[59] – ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد ت.851هـ/1447م: تاريخ ابن قاضي شهبة، المعهد الفرنسي للدراسات الفرنسية، دمشق، 1997م، ج3 ، ص27 .

[60] – ابن عربشاه، أحمد بن محمد ت.854هـ/1450م: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مطبعة كلكتا، 1817م، ص107.

[61] – زكريا، أحمد: جولة أثرية في بعض البلد الشامية، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1984م، ص327؛ اليافي، نبيل: حمص عبر التاريخ، مجلة دراسات اشتراكية، كانون الأول، دمشق، 1993م، ص45؛ شيخاني: حمص عبر التاريخ، ص41.

الجنسية: أي خلق جنس جديد ناتج من الزواج والاختلاط بالدم مع الشعب الذي يحكمونه، أما توالدهم الطبيعي فقد كان ضعيفاً؛ إذ لم يناسبهم الطقس في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى القتل الكثير منهم إما حرباً، أو بسبب النزاعات فيما بينهم، لذلك كانوا يستدركون نقصهم العددي باستيراد المزيد من المماليك.

والوظيفية: بمعنى أن الوظائف الكبرى القيادية والعسكرية كانت لهم فقط، والمالية والاقتصادية أيضاً، أي أنهم كانوا يسيطرون على كل نشاطات المجتمع الاقتصادية، ولا يكتفون بهذا، بل كلما أثرى تاجر أو فلاح من العوام أو موظف إداري وضع في منصب يستطيع أن يقتنص لنفسه ثروة ما، كان السلطان أو الحاكم يقوم بالقبض عليه، وينتزع منه المبلغ الذي من المفروض أن هذا المثرى حديثاً قد جمعه، وهكذا يظل السلطان المسيطر الأكبر على ثروات المجتمع، وبهذه الثروات يترف السلطان ويترف حاشيته، وبالتالي كان يوجد عند السلاطين عند قتلهم أو خلعهم الذهب الكثير، والسلاح، والتحف، والكنابيش الذهبية[62]، والسروج الذهبية، والبلورية، والعتيق، والخلع التي بالطراز المذهبة، وغير ذلك من التحف الفاخرة.

وبسبب ماكان يقرره السلاطين على الحسبة في كل شهر، كانت السوقة(بائعي المفرق) يبيعون البضائع بما يختارونه من الأثمان ولا يقدر أحد أن يكلمهم، فإن كلمهم أحد يقولون علينا مال للسلطان[63].

[62] – ثوب يوضع تحت سرج الفرس، مسعود، جبران: الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1992م، ص140.

[63] – الذهبي، خيري: نهاية المماليك ودخول العثمانيين إلى بلاد الشام، وزارة الثقافة، دمشق، 2008م، ص7.

كان المماليك يحبون تمييز أنفسهم عن العوام من العرب، حتى أن بعض حكامهم كان يلبس في أصابعه خواتم

الياقوت والفيروزج[64] والألماس وعين الهر[65]، وكانوا مولعين بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر، وكانوا ترفين في ملبسهم، وبازدياد الترف، وبسبب الفساد وانقطاع طريق التجارة البحرية بين الشرق والغرب التي سلبها البرتغاليون، وبازدياد انفلات الأمن؛ وانتشار سمة القتل المماليك القرانصة [66]في الشوارع من قبل الممالك الأجلاب بسبب اقطاعاتهم، وتمرد عرب آل مهنا في بادية الشام ومواقعتهم نواب حمص سنة 762هـ/ 1361م، فلم تعد تحافظ على ترفها إلا في الإمعان في زيادة الضرائب، ولم تزد الناس إلا نفوراً[67].

ومع ذلك في كثير من الأحيان تركوا للسكان المحليين قسطاً وافراً من الحرية الخاصة لممارسة إدارة شؤونهم الداخلية، الذين نظموا أمورهم بواسطة التنظيم الحرفي وبسط الأمن في الداخل بواسطة الفتوة المحليين الذين وجدوا أنفسهم في مواقع المسؤولية للدفاع عن مجتمعاتهم الداخلية، وكان لرجال الدين معظم الوظائف

---

[64] –حجر كريم لونه أزرق سمائي، يقال له أيضاً فيروز، وتصنع منه فصوص الخواتم، عمر، أحمد: معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب، الرياض، ط1، 2008م، ج2، ص68.

[65] – عين الهر: حجر يحدث شعاع ضوئي أبيض، يشبه شعاع بؤبؤ عين الهر، وذلك بسبب الضوء المنعكس، يستخدم عين الهر في المجوهرات وأغراض الزينة، كما له فوائد روحانية، مجموعة من المؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، السعودية، ط2، 1999م، ج16، ص755.

[66] – المماليك القرانصة: هم المماليك القدماء على عكس المماليك الأجلاب أو الجدد، الذهبي: نهاية المماليك، ص18، هامش رقم 1.

[67] – الذهبي: نهاية المماليك، ص11.

الإدارية الهامة؛ كالقضاء وسعة النفوذ، والإفتاء، ونقابة السادة الأشراف، والخطابة، والتدريس[68]،

وهذه المظاهر كان لها انعكاس على مناح الحياة ومن ضمنها الناحية العمرانية.

خامساً: البناء

رغم بطش معظم حكام دولة المماليك بالعرب، وترفهم الزائد، وشدة إلحاح سلاطينهم وقادتهم على جمع المال بكافة الوسائل، كان لها فضيلة مهمة وهي اهتمامها بالعمارة، فما تركته من جوامع وخانات وقصور وحمامات وترب ومقابر كان شاهداً على فن وذوق في هذا المجال، فقد اجتمع لها المال الكثير؛ من تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب التي كانت تجمع مكوسه وضرائبه، وغلات أو منتجات زراعية وفيرة وما تدره من أموال هائلة، ولم تكن هناك مصارف لحفظ هذه الأموال للأزمات، فحولوا هذه الأموال إلى تحف معمارية، بذلوا لها المال الكثير، والعمال السخرة.

وكانت السمة الأساسية عند إنشاء السلاطين المماليك المباني كالخانات والدور والدكاكين والحمامات ينعمون على خاصتهم من الأمراء بأموال باهظة، ويتم الاحتفال بمظاهر بذخ عند الانتهاء من العمارة وتدشينها، فتصطف الطبول والزمور على الجوانب والنفير السلطاني، وتمشي أمامهم عدة نوب هجن[69] بأكوار[70] مزركشة

[68] – حسين آغا، محمد غازي: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، مطبعة اليمامة، حمص، 2005م، ص56.

[69] – هجن: جمع هجين وهو الجمل، مصطفى، إبراهيم: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، د.ت، ص165.

[70] – الكور: هو ما يساوي السرج على الجمل، مصطفى: المعجم الوسيط، ص122.

وبعضها عليه المخمل الملون، وكذلك يمشي أمامهم نحو أربعين فرساً بعضها بكنابيش زركش وسروج مفرق، وكان من جملة الجنائب[71] بغال وحجورة[72] بسروج بدوية، ثم حملة رايات حريرية صفراء، ولما يمشي الأعيان والأمراء يجيء بعدهم السلطان[73].

سادساً: الآثار المملوكية في مدينة حمص

أ- الجوامع:

1-جامع خالد بن الوليد:

تفخر مدينة حمص بأنه في ثراها مرقد البطل الصحابي خالد بن الوليد، وكان يقوم على المرقد قبة خاصة، ومسجد له قباب عديدة وكبيرة في قرية صغيرة مجاورة لمدينة حمص(قرية سيدي خالد أو الخالدية)[74].

وعند مرور الملك الظاهر بيبرس ت.676ه/1277م بمدينة حمص لغزو سيس[75]سنة 644ه/1246م، كان الضريح والمسجد قائمين، فأمر ببناء الجامع وتجديده وأضاف وقدم الضريح من خشب الصندل هدية تليق بالمقام وكساه بالجوخ

---

[71] – الجنائب: هي الدواب التي تمشي مع الموكب مجانبة بدون ركاب عليها، مصطفى: المعجم الوسيط، ج1، ص45..

[72] – حجورة: جمع حجر وهي الفرس، مصطفى: المعجم الوسيط،ج1، ص74.

[73] – ابن إياس: بدائع الزهور، ص30.

[74] – يقع الآن في حي الخالدية من المنطقة العقارية الخامسة الرقم 88، ومساحته 4399متر مربع، الزهراوي، نعيم: أسر حمص وأماكن العبادة، مطبعة اليمامة، حمص، 1995م ج2، ص262.

[75] – بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس، الحموي: معجم البلدان، ج3، ص295.

الأسود، وتشير الكتابة المنقوشة على التابوت المحفوظ في المتحف الوطني بدمشق بقاعة خالد بن الوليد[76]، وتحتفظ هذه القاعة بلوحتين خشبيتين تشيران إلى التاريخ المذكور:

اللوحة الأولى:(**بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله صلى الله وعليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه، مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، محي العدل في العالمين، مالك البحرين، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن، بيبرس الصالحي قسيم، أمير المؤمنين، أعز الله سلطانه، عند عبوره على حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة أربعة وستين وستماية).**

النص الثاني نقش على باب خشبي وبنفس التاريخ:(**بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشائه على حرم تربة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، مولانا السلطان الملك المظفر ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين. قاهر الخوارج والمتمردين، ومحي العدل في العالمين، ملك البحرين، صاحب القبلتين، حامي الحرمين الشريفين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن، بيبرس**

[76] – شيخاني، محمد فيصل: حمص وخالدها، دار الإرشاد للنشر، حمص، 2006م، ص83؛ الموصلي: الموجز في تاريخ مدينة حمص، ص69.

الصالحي، قسيم أمير المؤمنين، أعز الله سلطانه، عند عبوره على حمص للغزاة ببلاد سيس، وذلك في شهر ي الحجة سنة أربعة وستين وستماية)[77].

وعند فتح قلعة صفد على يد السلطان الظاهر بيبرس، فرح بهذا النصر الكبير، وقسم البلاد على المجاهدين والمدارس والمراقد، ولم ينس مرقد الصحابي الجليل خالد بن الوليد ، فأوقف عليه قرية فركم من أراضي صفد، وسطر هذا الوقف على لوح رخام بثمانية أسطر، ولم يبق من هذا النص إلا قسم من السطر الرابع، وهو محفوظ في متحف دائرة الآثار في حمص، والنص هو:(**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا مكتوب بما وقعه مولانا السلطان الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل المجاهد، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، وارث سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الحصون والقلاع والأمصار، مبيد الفرنج والأرمن والتتار، ملك البحرين، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، الآمر ببيعة الخليفتين، أبو الفتح بيبرس الصالحي، خلد الله سلطانه، على مصالح هذا المشهد الشريف المعروف بخالد بن الوليد رضي الله عنه، وهي قرية فركم بكمالها من بلاد صفد المفتتحة بالسيف الشريف في شوال سنة أربع وستين وستماية، وقفها جميعها بحدودها الأربعة بمقتضى الشروط المعينة في كتاب الوقف الصحيح وجعلها صدقة خالدة على مشهد خالد ساكن هذا الضريح، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك قائلاً: " لما أنعم الله علي بما أنعم من افتتاح القلاع والحصون من أيدي جماعة الفرنج الكافرة، وأخذها بأراضيها المزروعة وبلاده العامرة، وحصلت لي الدنيا لم أنس نصيب الآخرة،**

[77] – عبد الحق، سليم: موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مجلة الحوليات الأثرية السورية، وزارة الثقافة– مديرية الآثار والمتاحف– دمشق، 1960م، المجلد 10، ص30؛ حسين آغا: مدينة حمص، ص68.

فقسمت البلاد على المجاهدين ومن حضر هذه الغزوات من الأولياء الصالحين، وما جاور بلاد الفتوحات من مراقد الأنبياء والصديقين، فلم أخل الأحياء والأموات من الإنعام والهدات، تقبل الله هذه الصدقات بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وجعله...الأزمان"، وكان الفراغ منه في شهر ربيع الأول سنة ست وستين وستماية)[78].

ويوجد في مقام خالد بن الوليد كتابة أثرية على لوح خشبي تذكرنا بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهد السلطان الملك الأشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة 691هـ/1292م[79]، ونص الكتابة هو:(**بسم الله الرحمن الرحيم. جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور الهمام ملك الأنام صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر الملة المحمدية، محي الدولة العباسية، ملك البحرين، صاحب القبلتين، ووارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، مالك رقاب الأمم، جامع فضيلتي السيف والقلم، أبي الفتح خليل خلد الله سلطانه، وأفاض على الرعايا كافة عدله وإحسانه، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه، ونور ضريحه، وذلك عند توجهه إلى فتح قلعة الروم سنة إحدى وتسعين وستمائة)[80].**

---

[78] – عبد الحق: موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، 1960م، المجلد 10، ص30؛ حسين آغا: مدينة حمص، ص69.

[79] – شيخاني: حمص وخالدها، ص84.

[80] – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص13؛ عبد الحق: موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، المجلد 10، ص31؛ حسين آغا: مدينة حمص، ص70.

كما أدخل الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ت.741هـ/1341م بعض الإصلاحات على المشهد، وصلت منها قطعة مستطيلة أبعادها/125×15 سم/[81]، وفي المسجد نقوش وكتابات كثيرة تشير إلى تجديد وبناء في مراحل مختلفة من تاريخ هذا المكان.

2- الجامع النوري الكبير:

من أعظم المساجد القديمة والمواقع الأثرية في مدينة حمص[82]، خطه أبو عبيدة بن الجراح بعد فتح مدينة حمص سنة 16هـ/637م، وفي خلافة الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/ 705-715م) شيد المسجد الجامع على نمط المساجد في صدر الإسلام، ويشبه جامع بني أمية، وقد جدد المسجد الجامع كلياً بأمر من نور الدين الشهيد بين سنة 549-577هـ/1154-1181م بعد الحرق والتدمير بسبب الفتن والغزو الخارجي والزلازل وخاصة الزلزال المدمر الذي أتى على معظم بلاد الشام سنة 565هـ/1169م، ويذكر أن في الجامع لوحة تنص على تجديد أحدثه الملك الظاهر بيبرس وكتب فيه:" **بسم الله الرحمن الرحيم. قد تجدد هذا الحائط بأمر حضرة مولانا السلطان الملك الظاهر، بمناظرة الحاج عبد المجيد...، قاضي قضاة الشام في سنة ستمائة وإحدى وسبعين للهجرة)**[83].

---

[81] – شيخاني: حمص وخالدها، ص84.

[82] – يقع في المنطقة العقارية الرابعة برقم8 ومساحته 7260متر مربع، وأصبحت في عام 1959م مساحته 5323متر مربع، الزهراوي: أسر حمص وأماكن العبادة، ص185.

[83] – البيطار، حسين آغا، عبد الرحمن، محمد غازي: منشآت حمص التراثية ونقوشها الكتابية- قراءة في مخطوط تواريخ مدينة حمص العدية لكاتبه قسطنطين بن داود الخوري، منشورات الجمعية التاريخية السورية، حمص، 2020م، ص83؛ حسين آغا: مدينة حمص، ص181.

3- مسجد الأربعين[84]

يقع في الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة القديم(حالياً جانب بلدية حمص)[85]، ويجاور البرج الذي يشكل موضعاً دفاعياً هاماً، ويعرف بالجامع الكوجكي[86]، ويطلق عليه أيضاً مسجد شهاب الدين الكوجكي.

شيده الأمير الشهاب حسين بن قراكوز[87] جلبي[88] الكوجكي(الحاكم لمدينة حمص) مدفناً له، وقد ألحق به مكتباً لتعليم الطلبة، مع تقديم الطعام اللازم واللباس وغير ذلك

---

[84] – جاءت تسمية جامع الأربعين بعد سنة 1840م عندما بدأت الصوفية تلعب دورها الديني، وتجتمع في هذا الجامع، وهناك ضريح موجود فيه هو من الأبدال، وفي التصوف الإسلامي أن يكونوا بالشام، الزهراوي: أسر حمص وأماكن العبادة، ج2، ص20.

[85] – رقم العقار 114 من المنطقة العقارية الأولى ومساحته 337متر مربع، شارع الأربعين- باب هود، الزهراوي، نعيم: أسر حمص وأماكن العبادة، ج2، ص20.

[86] – وقع بين أيدينا مخطوط مصور لديوان شعر نادر لأديب ابن أمير كوجكي، نسخ بخط أخيه الأمير حسن الكوجكي ومؤرخ في 22 ربيع الأول سنة 1115هـ/1703م، ومكتوب على المخطوط تملك عارف شرف زادة ومؤرخ سنة 1179هـ/1765م والسكن باب تدمرحمص وفيه:" الأسرة الكوجكية تنسب إلى الملك المظفر من الأكراد الأيوبية وهو صاحب مملكة حماة منذ سنة 588هـ/ 1192م، حيث انتهى الحكم الوراثي للأسرة التقوية الأيوبية في مملكة حماة بوفاة الملك المظفرس تقي الدين محمود الثالث حاكم مدينة حماة بين سنة 683هـ/1284م وسنة 698هـ/1291م،الكوجكي، محمد بن الأمير مصطفى: صبوات الصبا وهبوات الهبا، مخطوط محفوظ في دار الكتب المصرية، وعلى هذا فإن أمراء الأسرة الكواجكة في حمص ليسوا مماليك وإنما أصولهم امراء أيوبيين حكموا في زمن المماليك.

[87] – قراكوز: الكلمة مؤلفة من كلمتين، قرا بمعنى الأسود وكوز بمعنى العين، أي العين السوداء، الكواكبي، محمد صلاح الدين، الكلمات الدخيلة على العربية الأصيلة، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976م، ص67.

من المتطلبات، وأوقف عليه لهذه الغاية وقفاً كبيراً، منها: السوق الشهير بسوق الكوجكي ضمن الأسواق القديمة، والدكاكين التجارية الأخرى الموزعة في الأسواق القديمة والأحياء، والفرن، ومطحنة العفص، والحمام الذي أطلق عليه حمام الشهاب المجاور لمكتبة الطلبة، وحمام السراج في شارع الورشة، والأراضي الزراعية والغراس المثمرة والبساتين العديدة في ظاهر المدينة، وخصص في كتاب الوقف ريع إحدى الأراضي الزراعية المثمرة لأجل تقديم الأكفان لفقراء المسلمين في المدينة، وسميت" أرض الأكفان"، كما نص على ذلك كتاب الوقف المؤرخ والمجدد في ذي القعدة سنة 976هـ/1568م.

وشرط الواقف على الطلبة حفظ القرآن الكريم وعلومه والخط ومبادىء العلوم الشرعية، لينتقلوا إلى مرحلة دراسية أوسع لمدة خمس سنوات في مسجد السراج الذي شيده وألحق به داراً خاصاً لإقامة الطلبة، والقائم على إدارة المدرسة والناظر والمعلم والمؤدب والمشرف والخادم.

كما شرط الواقف أن يكون المتولي على إدارة الوقف والناظر عليه من ذريته(لتبقي الايرادات لذريتهم).[89]

4- مسجد السراج:

يقع في وسط شارع الورشة[90]، إلى الجنوب من قصر الحكم الكوجكي المملوكي، شيد في حكم الأسرة المملوكية الكوجكية على مدينة حمص في القرن الثامن الهجري، شيد سنة 713هـ/1312م، وجدد سنة740هـ/1340م، وتجديد آخر سنة 841هـ/1437م. وتوجد لوحة على المدخل توضح ذلك ونصها: (**بسم الله**

---

[88] – جلبي= شلبي: ذو النبل والفضل، أو السيد، دهمان، أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1990م، ص14.

[89] – حسين آغا: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، ص264.

[90] – رقم العقار 343 من المنطقة العقارية الرابعة، شارع السراج، مساحته 684متر مربع، الزهراوي: أسر حمص، ص237.

الرحمن الرحيم. بشرى لكم يا مؤمنين بجامع السراج ذو الضياء المبهج المبين، قد بني سنة 713، قد تجدد هذا المسجد المبارك سنة 841)[91].

أقيم ضمن هذا المسجد غرف عديدة ومدرسة للطلبة، وكانت هذه المدرسة من أهم المدارس الشرعية والعلمية في المدينة، وحبس عليها وقف كبير جداً، والتي خصص وقفها لطلاب العلم والتعليم، ولطلاب العلم من الأيتام والفقراء النصيب الأكبر.

وأطلق على المسجد فيما بعد" مسجد السراج" نسبة إلى العلامة الفقيه الشيخ عمر بن موسى بن الحسن السراج[92]، وهو الخطيب والمدرس والمسؤول عن إدارة المدرسة وشؤون الوقف[93].

5- مسجد عبد الله بن مسعود:

يقع وسط حي باب هود[94]، وقد أخطأ عامة أبناء حمص عندما نسبوا هذا المسجد إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، والصحيح أنه يعود إلى الأمير المملوكي ابن

---

[91] – البيطار؛ حسين آغا: منشآت حمص التراثية ونقوشها الكتابية، ص109.

[92] – عمر بن موسى بن الحسن السراج القرشي المخزومي الشافعي الحمصي ثم القاهري، ويعرف بابن الحمصي، ولد سنة 777هـ/ 1375م بحمص ونشأ بها، وحفظ القرآن وألفية ابن مالك، وانتقل به أبوه إلى دمشق فأخذ الفقه، ثم نقله أبوه إلى حماة واشتغل بالنحو، ثم عاد إلى دمشق فحضر مجالس العلم، ثم رحل إلى القاهرة، توفي ببيت المقدس سنة 861هـ/1455م، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ت.902هـ/1496م، محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج6، ص140.

[93] – حسين آغا: مدينة حمص، ص482.

[94] – يقع في المنطقة العقارية الأولى برقم 604 ومساحة 419 متر مربع، الزهراوي: أسر حمص وأماكن العبادة، ج2، ص43.

مسعود، وتحمل المئذنة رنك[95](الشعار المملوكي) الأمير الذي شيده حسب العادة في تلك المرحلة، ويحوي المسجد من جهة الغرب قبرين على كل قبر شاهد كبير من الحجر الأبيض، لأبناء الأمير المملوكي، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الحرم ضريح الأمير ابن مسعود المملوكي، وهو من الأسرة الكوجكية المملوكية الحاكمة في مدينة حمص، ويوجد لوحة حجرية تؤرخ للبناء وفيها:(**أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج محمد بن محمد الندبوي الراجي مغفرته، أنالنا النظر وجه ربه المنجد، المعروف بتربة عبد الله بن مسعود، وذلك بتاريخ شهر ذي حجة الحرام من شهور سنة ثمان وستين وثمان ماية غفر الله له ورحمه، حالنا بالمغفرة ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين، آمين)**[96].

ب- المدارس:

كان في حمص في الفترة المملوكية عدة مدارس منها مدرستان أنشأهما أمراء الأسرة الكوجكية الحاكمة في المدينة، الأولى في مسجد السراج والثانية في مسجد الأربعين، وهاتان المدرستان ذواتا تخصص عال، وهما يؤمنان للطلاب الإقامة المريحة والطعام واللباس والخدمة والعلم والتعليم بمنهجية عالية ولمدة سبع سنوات[97]، وأوقفا لأجل هذه الغاية أوقافاً كثيرة، ورتبت إدارة الوقف والمدرسة بترتيب دقيق، وكذلك مدرسة أبي البهاء التي شيدت في الفترة المملوكية إلى الشرق من جامع الشيخ جمال الدين، وكانت حلقات المساجد(التخصص في

[95] – الرنك: هو الشعار الرسمي للدولة الحاكمة ويوضع على واجهة المباني، البيطار، عبد الرحمن: النقوش الكتابية الأثرية في حمص، مجلة البحث التاريخي، العدد التاسع، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2009م، ص91.

[96] – حسين آغا: مدينة حمص، ص278.

[97] – نص الوقفية المؤرخة في أواخر القرن 9هـ/15م ثم جدد تداولها بموجب نص الوقف المؤرخ سنة 1578/986م، ويوجد صورة عنها في مكتبة المؤرخ غازي، حسين آغا: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، ص65، هامش رقم 4.

العلم) عامرة بالعلماء الأجلاء والطلاب، ويتوقف مستوى التعليم فيها على حسب مؤهلات العالم المدرس، وهناك الحلقات الخاصة التي تقوم على الإلقاء والتلقين، والإملاء والتلقي، والمناظرة والشرح والتدوين، وهذه مرحلة من مراحل التعليم العالي، وقد تخرج منها فقهاء أعلام وعلماء كبار من المفسرين والمحدثين والأدباء، وكان يتم الإنفاق على نشر العلم والمعرفة ومراعاة شؤونهم في كافة مراحله التعليمية من طلاب ومعلمين من ريع الوقف الكثير الذي يرصده الحكام وكبار التجار والأثرياء[98].

ج- الحمامات:

1ً-حمام العصياتي:

يقع في شارع العصياتي، وهو من أهم وأجمل الحمامات الأثرية في حمص، شيد في العصر المملوكي، وجدد مدخله سنة 1225هـ/1810م [99].

2ً-حمام الشهاب:

من الحمامات المملوكية التي اشتهرت في حمص، يقع في باب هود، هدم في نهاية القرن التاسع عشر
الميلادي[100].

3ً-حمام تنكز:

كان للأمير المملوكي تنكز أملاك كثيرة في حمص منها الحمام[101].

---

[98] – حسين آغا: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، ص65.

[99] – الموصلي: الموجز في تاريخ مدينة حمص، ص81.

[100] – شيخاني: حمص عبر التاريخ، ص498؛ الموصلي: الموجز في تاريخ مدينة حمص، ص82.

[101] – أكدت تقارير دائرة أثار حمص على وجود الحمام من خلال اللقى الفخارية والحجرية والخزفية مكان أساسات مبنى المالية

د- الخانات:

خان تنكز: جد هذا الخان في عهد المماليك وبإشراف نائب حمص، وهو يقع ضمن المدينة[102].

هـ- القصور:

قصر الزهراوي:

من أشهر بيوت حمص الأثرية[103]، ينقسم إلى خمسة أقسام رئيسية:

1- يوجد مدفن بيزنطي تحت الأقبية.

2- بناء شيد في العصر المملوكي، ويوجد لوحة تأسيسية منفوشة على حجرة مطلة على باحة الدار، وهذا نصها:(**بسم الله الرحمن الرحيم. عمر هذه الدار وملكها علي ابن أبي الفضل الأزهري، ووقفها لمن بعده لأولاده سنة 661هـ/1262م)**، ويوجد على المدخل سبيل ماء، وتنص اللوحة الحجرية الموجودة فوق المدخل على: **(عمر هذا الطريق الحق الأبر علي الأزهري فوق أناس تيه بنجد بتيمار 660هـ/1261م)**،.

وتعد هذه الدار، دار الغرفة التجارية الأولى في حمص، وكلمة طريق هو صرح البناء التجاري الصوفي معاً والمنصوص عليها في العصر المملوكي اصطلاحاً حكومياً وتجارياً، وكلمة الحق الأبر أنه استلهم ذلك من الله تعالى، والنص فوق أناس تيه بنجد لما لأجر بتيمار، أنه من التجار الكبار الذين ذهبوا إلى الجزيرة

(ضمن السور القديم) أثناء الحفر، الزهراوي: أوابد الكواجكة، ص150.

[102] – علقم، محمود: الخانات في بلاد الشام، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2019، ص268.

[103] – المنطقة العقارية الرابعة، الرقم 296، باب تدمر، المساحة 811متر مربع، الزهراوي: أوابد الكواجكة المملوكية، ص78.

العربية، وتم له التوفيق في بلاد نجد وغيرها، وأن كلمة بتيمار هي من الأراضي الواسعة الشاسعة(الإقطاع)[104].

لقد كانت حمص مركزاً تجارياً، ونشطت التجارة في عهد الملك الظاهر بيبرس، ورافق هذا الاشعاع التجاري بناء حضاري في بناء القصر، ويوجد فيه شعارات تمثل السبعين، وهو شعار الملك الظاهر بيبرس.

3- بناء مملوكي وتنص وقفية آل طليمات الحسيني بأن تم بناءه سنة 665هـ/1266م من قبل أحمد بن علي زهرا وقد تسلم القضاء حمص[105].

4-زاوية ومسجد الشيخ موسى الزهراوي.

5- القصر الغربي وهو بناء عثماني.

و- التكايا

- التكية الكوجكية:

بناء ديني أثري[106]، شيد خارج باب المدينة لنزول الغرباء والوافدين على المدينة لينالوا قسطاً من الراحة بعد معاناتهم من مشقة السفر، ويوجد شعار نور الدين محمود بن زنكي على مدخله الرئيسي، ويظن أنها من مشيداته، ومن الممكن أنه تم تجديد هذه التكية على يد أحد أمراء الأسرة الكوجكية التي حكمت مدينة حمص، والقسم الآخر من التكية هو مدفن خاص شيده الأمير أحمد الكوجكي ليكون مدفناً له حسب عادة الأمراء المماليك، وتوجد لوحة تاريخية محفوظة في المتحف الوطني بدمشق؛ حيث لم يبق من هذا الصرح إلا هذه اللوحة، وهي :(**أنشأ هذه**

---

[104] – الزهراوي، نعيم: أماكن الحاكمية في حمص، ص54.

[105] – الزهراوي، نعيم: أسر حمص، مجلة غرفة التجارة والصناعة، العدد 1996، حمص 1997م، ص 13-14.

[106] – تقع في المنطقة العقارية الأولى باب هود برقم 289وبمساحة 67متر مربع، الزهراوي: أسر حمص وأماكن العبادة، ج2، ص33.

التربة المباركة العبد الفقير الذليل، الراجي عفو ربه القدير، أحمد بن إسماعيل الكوجكي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ولمن ترحم عنه ودعا له بالمغفرة، آمين، بشهر الله المحرم سنة إحدى وأربعين وثمانمائة)[107].

وأنشأ الباني إلى الشرق من التكية والمدفن سبيل ماء للعابرين، كان يستمد الماء عن طريق الناعورة الكبيرة، لتصب في حوضه الأثري المميز، وقد نقش عليه:(**بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأ هذا السبيل المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى، الراجي عفو ربه وغفرانه، أحمد بن إسماعيل الكوجكي، بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة ثلاثين وثمانمائة)**[108].

وكان لهذه التكية الكثير من الأوقاف، وقد زاد عليها من أتى بعدهم من الحكام والقادة وأعيان المدينة.

ويذكر أن الباب الرئيس للتكية عريض ومرتفع، ويفضي إلى صحن التكية الواسع، ويحيط بالصحن الغرف الكثيرة بأبوابها ونوافذها المطلة على الصحن، وهي متشابهه فيما بينها، ومشيدة بعقود حجرية، وفيها أواني عديدة موزعة في جهاتها الأربع، ومن صحن التكية ينفذ إلى قسم آخر فيه مستودعات وغرف الخدمة اللازمة، والجناح الرئيسي في التكية هو القاعة الكبيرة المربعة الأضلاع والتي يعلوها قبة كبيرة مضلعة، وفي ركن من أركانها مدخل يؤدي إلى غرفة تعلوها قبة صغيرة كانت مخصصة للمدفن، وخارج التكية ساحة كبيرة مبلطة بالحجر، وبجانب المدخل بحرة كبيرة يصب فيها الماء من الناعورة الكبيرة القريبة من

---

[107] – عبد الحق: موجز في تاريخ حمص، مجلد 10، ص33، حسين آغا: مدينة حمص، ص238.

[108] – عبد الحق: موجز في تاريخ حمص ، مجلد 10، ص33، حسين آغا: مدينة حمص، ص238.

التكية، ومن البحرة يصل الماء إلى جرن السبيل الحجري الواقع إلى الشرق من التكية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي صارت هذه التكية مقراً للطريقة المولوية، وفي سنة 1957م أزيلت هذه التكية[109]، وشيد على أنقاضها مسجد الصحابي أبو بكر الصديق[110].

ز- الزوايا:

-زاوية الخضر:

بنى الملك الظاهر بيبرس زاوية لشيخه الخضر[111] في شمال شرق حمص، وكان قد بنى له زاوية في عدة أماكن منها: زاويته في مصر، وزاوية ثانية في القدس، وثالثة في المزة في دمشق، ورابعة في ظاهر بعلبك، وبحماة زاوية[112].

ح- تجديد القلعة:

كان علاء الدين البرواناه- ومعناها الحاجب- في بلاد الروم يتذمر من سيطرة المغول واعتدائهم على أملاكه، فكاتب الظاهر بيبرس يستنجده عليهم، وخرج الظاهر بجيشه من دمشق يريد المغول، وأقام بحمص ينتظر ما يأتيه من أخبار أعدائه، فأرسل إليه علاء الدين يستحثه على لقاء المغول، غير أن بعض العوائق حالت

---

[109] - أرسلت أحجارها المكتوبة إلى المتحف الوطني بدمشق، الموصلي: الموجز في تاريخ مدينة حمص، ص76.

[110] - حسين آغا: مدينة حمص، ص237.

[111] -الخضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي شيخ الملك الظاهر، كان صاحب حال ونفس قوية، وكان له حال روحية أخبر بسلطنته قبل وقوعها، وكان الملك الظاهر يعظمه ويصطحبه في أسفاره، توفي سنة 676هـ/1277م ودفن في زاويته في مصر، ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص351.

[112] - شيخاني، محمد فيصل: حمص عبر التاريخ، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م، ص39.

دون تنفيذ خطته فأجل الحملة إلى السنة التالية، وقام في هذه الأثناء بتجديد سفح قلعة حمص، بعدما رأى أن الخراب أخذ بالتسرب إليها، فأعاد إليها متانتها السابقة ليعتصم بها الجند وقت الحاجة[113].

ك: صيانة الأبواب

-باب السباع:

من أبواب مدينة حمص السبعة، يقع في الجانب الجنوبي الشرقي من القلعة مباشرة ويتجه نحو الغرب، وهو الباب الذي يؤدي إلى حسيا ودمشق الشام، وهو المنفذ التجاري للمدينة، ومنه تخرج قافلة الحج، وأما عن تسميته باب السباع، فبسبب نقش فوق ساكفه لصورة أسدين متقابلين، وقد أطلق هذا الاسم بعد تجديده من قبل الملك الظاهر بيبرس، وهذا الشعار أو الرنك هو شعاره[114].

ل- **القناطر:**

- **قناطر الرستن:**

كان الملك الظاهر جقمق الجركسي ت.857هـ/1453م محباً للعمران وبناء المساجد والجسور وغير ذلك من المصالح العامة؛ وهو الذي أمر ببناء قناطر الرستن على نهر العاصي بين حمص وحماة خلال فترة حكمه(842-857هـ/1338-1453م)[115].

م-الطواحين:

توجد طاحونة السبعة على نهر العاصي على طرف المدينة الغربي في منطقة الميماس، وتأسست في العهد المملوكي ويوجد لوحة تنص على:" **بسم الله الرحمن الرحيم.**

---

[113] -أسعد: تاريخ حمص، ج2، ص249، حسين آغا: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، ص24.

[114] - حسين آغا: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، ص41.

[115] - أسعد: تاريخ حمص، ص259.

أنشأ هذا الطاحون المباركة المقر الكريم العالي الناصري محمد بن ملسيس الأشرفي نائب لسلطنة الشريفة بحمص المحروسة، أعز الله أنصاره، وذلك في شهر المحرم من أربعة وستين وثمانمائة 864هـ"[116].

ن- المقابر:

مقبرة التلة:

تقع خارج باب هود إلى الغرب والجنوب من باب هود والخندق، في مكان على تلة، فيها مقبرة لأمراء الأسرة الكوجكية الحاكمة في مدينة حمص، كانت لهم أعمال كثيرة في البناء والتعليم وإجراء الصدقات والبر والإحسان، القبور شيدت بالحجر الأبيض المصقول وعليها شواهد متوجة مملوكية، أزيل قسم منها سنة 1301هـ/1884م وشيد عليها مسجد" التلة"[117]، وأزيل قسم ثاني آخر سنة 1330هـ/1012م وشيد مكانها "المدرسة الخيرية"، (الميتم الإسلامي ومدرسته فيما بعد)[118].

- وكذلك في العهد المملوكي بني جامع الشيخ كامل، والعصياتي، ومقام البقاعي والبصراوي ت.837هـ/1433م، وفي خارج المدينة هناك مقامات معزوة لهذا العهد مثل مقام العرباض بن سارية في تلدو غربي حمص، وجامع ومقام عز الدين أبو حمرة الذي سميت القرية باسمه، وتبعد عن حمص 35كم، ومقام الصحابي أبو أمامة في قرية أبو همامة، وهي تعود بغالبيتها إلى فترة وجود الظاهر بيبرس في حمص[119].

---

[116] – البيطار: النقوش الكتابية الأثرية في حمص، ص100.

[117] – رقم العقار 321 من المنطقة العقارية الأولى ومساحته664متر مربع، الزهراوي: أسر حمص، ص59.

[118] – حسين آغا: مدينة حمص، ص290.

[119] – شيخاني: حمص عبر التاريخ، ص51.

- **خاتمة:**

حمص العدية، جارة العاصي، أم الحجار السود، شاركت في كل مراحل التاريخ القديم والتاريخ العربي الإسلامي، ولقد مرت عليها احتلالات الفرس واليونان والرومان والصليبيين والمغول، وبقيت مدينة عربية، وعلى الرغم من أن آثار حمص العربية الإسلامية الباقية قليلة نسبياً بسبب ما تعرضت له من زلازل وإهمال وتخريب، فإن ما بقي كان كافياً لأن يربط الحاضر بالماضي، ولكن مع ذلك لم يكن متناسباً مع أهميتها، ومازالت يد العبث وعدم المسؤولية تفعل فعلتها، لذلك تم تسليط الضوء على مجموعة محددة من الأماكن التي بنيت أو جددت في العصر المملوكي في مدينة حمص؛ ذلك العصر الذي ترك إرثاً حضارياً لا يتمثل فقط في العمائر التي تركوها في المدن العربية الإسلامية في كل مصر وبلاد الشام، من مساجد وربط وزوايا وحمامات وخانات وغيرها مازالت آثارها باقية حتى اليوم، بل تتمثل أيضاً فيما خلفه علماء وأدباء تلك الحقبة من مؤلفات مازالت تعتبر من أهم مراجع البحوث والدراسات ، وتم توثيق تلك الآثار من خلال الوثائق والنقوش والكتابات والزخارف، وهذه النقوش تحتاج إلى المحافظة عليها وترميمها، مثل وضعها ضمن مغلفات بلاستيكية أو زجاجية لحمايتها من العوامل الطبيعية، ووضع لوحات تعريفية رخامية بجانب كل معلم تاريخي وتراثي يبين موضوعها ليتمكن الناظر من التعرف عليها، ووضع لوحات إرشادية في طرق المدينة القديمة للدلالة على موقعها، وإجراء المحاضرات والندوات والمطبوعات التي تبرز أهمية هذه المواقع، وكذلك العناية بالآثار الإسلامية على مر العصور للمحافظة على الهوية العربية الإسلامية للمدينة.

إن التفكير العصري والاعتقاد بفائدة مشروع اختراق المدينة القديمة ونسيجها العمراني، وهدم بعض الأحياء والأماكن التراثية تحت زعم البناء الحديث، له من السلبيات أكثر من الناحيتين الشكلية والإدارية، إضافة إلى الناحية الاجتماعية.

فمن الناحية الشكلية سيكون مشروع التحديث العشوائي بأبنية شاذة بمظهرها الذي لا ينسجم مع المحيط القديم، والذي سيغطي وجه المدينة التراثي الجميل، ويرتفع على مآذن الجوامع ذات الطرازين الأيوبي والمملوكي ومن ثم العثماني؛ إنه التلوث البصري بعينه.

ومن الناحية الادارية تسبب هذا التحديث ضمن حمص القديمة بمشكلة كثافة بشرية وازدحام مروري وتلوث بيئة.

وأخيراً إن الحفاظ على الطراز العربي الإسلامي الذي اشتهر به الشرق الساحر الآسر برقته وصفاته الروحية وهويته العمرانية المتميزة، هذا الطراز يجذب السياح من شتى أنحاء العالم ويؤمن دخلاً مادياً للخزينة.

قصر الزهراوي
العصر المماليكي
القرن السابع الهجري - القرن الثالث عشر الميلادي

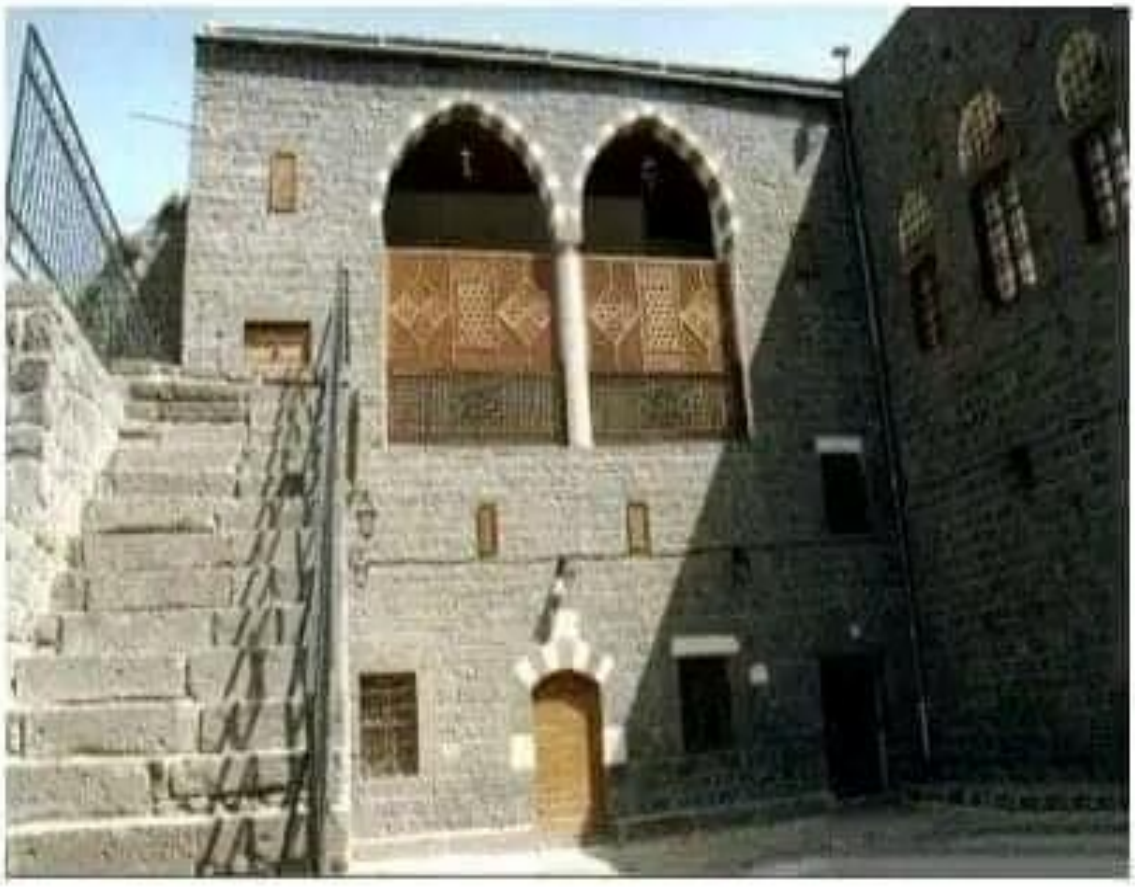

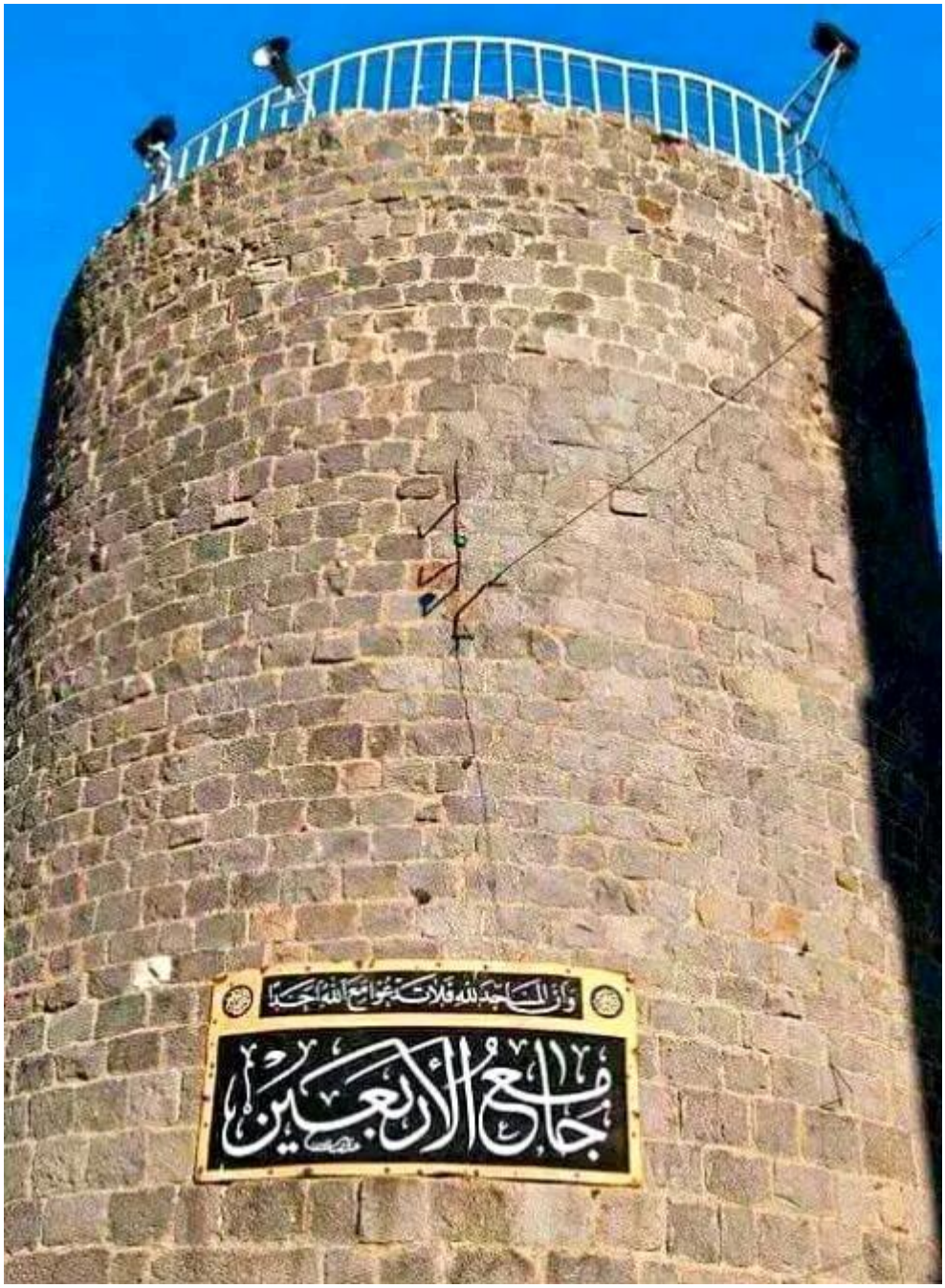
وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا
جامع الأربعين

قائمة المصادر والمراجع:

المخطوطات:

الكوجكي، محمد بن الأمير مصطفى: صبوات الصبا وهبوات الهبا،1115هـ/1703م، تملك عارف شرف زادة، حمص، 1179هـ/1765م، مخطوط محفوظ في دار الكتب المصرية، وتوجد صورة مصورة عنه عند المؤرخ محمد غازي حسين آغا.

المصادر:

1- ابن إياس، محمد بن أحمد ت.930هـ/1524م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984م.

2- البكري، عبد الله بن عبد العزيز ت. 487هـ/1094م: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1982م.

3- ابن تغري بردي، يوسف ت. 874هـ/1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر، د.ت.

4- الحموي، ياقوت بن عبد الله ت. 626هـ/1228م:معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

5- الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ/1347م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

6- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ت.902هـ/1496م، محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

7- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت. 911هـ/1505م: تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 2004م.

8-ابن عبد الظاهر،محي الدين ت.692هـ/ 1294م: الروض الزاهر في سيرة الملك

الظاهر بيبرس ، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م.

9-ابن عربشاه، أحمد بن محمد ت.854هـ/1450م: عجائب المقدور في أخبار تيمور، مطبعة كلكتا، 1817م.

10- ابـن العماد، عبد الحي بن أحمد ت. 1089هـ/ 1668م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م.

11- العمري، أحمد بن يحي ت.749هـ/ 1348م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، دبي، ط1، 2002م.

12- العيني، محمود بن أحمد بن موسى ت. 855هـ/1451م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

13- أبو الفداء، إسماعيل بن علي ت. 732هـ/1331م: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ط1، د.ت.

14- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد ت.851هـ/1447م: تاريخ ابن قاضي شهبة، المعهد الفرنسي للدراسات الفرنسية، دمشق، 1997م.

15- القلقشندي، أحمد بن علي ت.821هـ/1418م: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

16- ابـن كـثير، اسماعيل بن عمر ت. 774هـ/1372م: البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط1، 1997م.

17- المـقريـزي، أحمد بن علي ت. 845هـ/1441م: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، 1971م.

18- ابـن منظور، محمد بن مكرم بن علي ت. 711هـ/1311م: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1993م.

المراجع:

1- أسعد، منير: تاريخ حمص، مطرانية حمص الأرثوذكية، حمص، 1984م.

2- البستاني، بطرس: قطر المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1869م.

3- البني، عدنان: بين التراب والتراث، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2004 م.

4- البيطار؛ آغا، عبد الرحمن؛ محمد غازي: منشآت حمص التراثية ونقوشها الكتابية- قراءة في مخطوط تواريخ مدينة حمص العدية لكاتبه قسطنطين بن داود الخوري، منشورات الجمعية التاريخية السورية، حمص، 2020م.

5- البيطار، عبد الرحمن: النقوش الكتابية الأثرية في حمص، مجلة البحث التاريخي، العدد التاسع، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م.

6-_____: حمص، دراسات في تاريخها وآثارها، حمص، ط1، 2018م.

7- جواد، علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2007م.

8- جود الله، فاطمة: سورية نبع الحضارات تاريخ وجغرافية أهم المواقع الأثرية، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 1999م.

9- آغا، محمد غازي: مدينة حمص المساجد والزوايا القديمة، دار الإرشاد للنشر، حمص، ط1، 2019م.

10-_____: مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية، مطبعة اليمامة، حمص، 2005م.

11- حمودي، منذر: تحرير حمص من السيطرة البيزنطية، ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى، الجمعية التاريخية، حمص، 1984م.

12- الحميد، أحمد: الحياة الفكرية في مصر والشام في ظل دولة المماليك الثانية، مجلة البحث التاريخي، العدد 9، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م،

13- الدبس، يوسف: تاريخ سوريا، المطبعة العمومية، بيروت، 1902م.

14- دهمان، أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1990م.

15- رباحية، سميرة: منطقة حمص عبر التاريخ، مقال منشور في جريدة حمص في يوبيلها الماسي، مطابع ألف باء، دمشق، 1985م.

16- زكي، عبد الرحمن: تراث القاهرة العلمي والفني في العصر المملوكي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت.

17- زكريا، أحمد: جولة أثرية في بعض البلد الشامية، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1984م.

18- الزهراوي، نعيم: أسر حمص وأماكن العبادة، مطبعة اليمامة، حمص، 1995م.

19-_____: أسر حمص، مجلة غرفة التجارة والصناعة، العدد 1996، حمص، 1997م.

20-_____: أوابد الكواجكة المملوكية البحرية بحمص، مجلة البحث التاريخي، العدد 7، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009م.

21- سركيس، يوسف: مدينة حمص، مجلة المقتطف، العدد53، حمص، 1904م

22- ساطع، أكرم: القلاع والحصون في سورية، مكتبة أطلس، دمشق، 1975م.

23- السباعي؛ الزهراوي، محمود، نعيم: حمص دراسة وثائقية في الحقبة من خروج إبراهيم باشا وحتى خروج الأتراك العثمانيين، مطبعة الروضة، حمص، ط1، 1992م.

24- السحماوي، شمس الدين: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا الخالدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009م.

25- شيخاني، محمد فيصل: حمص عبر التاريخ، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م.

26- _____: حمص وخالدها، دار الإرشاد للنشر، حمص، 2006م.

27-الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية، دارة المعارف، القاهرة، 1966م.

28-عاشور، سعيد: الظاهر بيبرس، دار الثقافة، بيروت، 1996م.

29-__: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ، بيروت، 1972م.

30- العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.

31-عبد الحق، سليم: موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مجلة الحوليات الأثرية السورية، وزارة الثقافة- مديرية الآثار والمتاحف- دمشق، 1960م.

32- علقم، محمود: الخانات في بلاد الشام، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2019م.

33-كرد علي، محمد: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983م.

34- الكواكبي، محمد: الكلمات الدخيلة على العربية الأصيلة، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976م.

35- الموصلي، ماجد: الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مطابع الروضة النموذجية، حمص، 1984م.

26-اليافي، نبيل: حمص عبر التاريخ، مجلة دراسات اشتراكية، كانون الأول، دمشق، 1993م.

الموسوعات:

1-بروكلمان: دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وترجمة: إبراهيم زكي خورشيد؛ أحمد الشنتناوي؛ عبد الحميد يونس، دار الشعب، القاهرة،1965م.

المعاجم:

1-عمر: أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الرياض، ط1، 2008م.

2- مركز الدراسات العسكرية: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مطبعة المؤسسة العامة للمساحة، دمشق، ط1، 1992م.

3- مسعود، جبران: الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، ط7،1992م.

4- مصطفى، إبراهـــيم: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، د.ت.